

تراث ابن مرزوق التلمساني الخطيب مصدرا لتاريخ المجاورين
بمكة المكرمة والمدينة المنورة في القرن الثامن الهجري

أ.د/ حسن الوراكلي
المغرب

اتصلت الرحلة الحجازية واتصلت في إثرها ظاهرة المجاورة بمكة والمدينة، ولم تنزل هذه الظاهرة تتسع رقعتها حتى استوعبت الجرم الغفير من الوافدين على البلديتين المقدستين من مختلف الآفاق، ومنها أفق الغرب الإسلامي.

وقد أدرك أهل هذا الأفق من المشتغلين بالطلب والتحصيل أهمية هذه الرحلة الدينية والعلمية فحضر الآباء أبناءهم عليها، بل واصلحوبهم فيها ورافقوهم. وقد عرفنا عددا من الأبناء الذين رافقوا آباءهم في رحلة الحج، ومن أشهرهم أبو بكر ابن العربي المعافري من إشبيلية، وأبو عبد الله بن مرزوق الخطيب جمال هذه الحاضرة العلمية تلمسان.

وكان من هؤلاء الآباء من إذا قضى ثفته ووفى نذوره ألقى بعضا التسيار عند أكرم جوار برحاب البلد الحرام مكة المكرمة أو في مثله برحاب البلد النبوي المدينة المنورة، ومن هؤلاء أبو العباس أحمد بن محمد فخر بيت المرازقة التلمسانيين. ومن الثابت أن مجاورته هذه امتدت به إلى وفاته عام 741 هـ بما يعني استنادا إلى العام الذي أرخت به الرحلة وهو عام 717 هـ أنها استغرقت نحو ربع قرن صاحبه في نحو خمسة أعوام منها ولده أبو عبد الله وهو لم يبلغ الحلم.

وقد أتاحت له هذه المدة من المجاورة، إلى الاشتغال بطلب العلم ولقاء شيوخه،

مشاهدة حركة المجاورين . ومنهم والده . في المجالات الدينية والعلمية والاجتماعية، يدل على هذا وذاك ما تناثر في غير واحد من كتبه مثل (المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن) وفهرسته المسماة (عجالة المستوف والمستجاز في ذكر من سمع من المشائخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز) و(جنى الجنين في فضل الليلتين) وكتابه في مناقب والده الصادر بعنوان (المناقب المرزوقية) و(تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام) من نصوص أودعها، من موقع مجاورته سنين عددا رفقة والده، ما سمع من أخبار أهل الجوار ومروياتهم، وما شاهد عن كتب من ممارساتهم الدينية، وسلوكاتهم الاجتماعية، وما كان لهم وله من مشاركة في مجال الطلب والتحصيل العلميين، إلى إفادات متنوعة تغني جهود الباحثين في تاريخ المدينتين المقدستين بعامة وتاريخ المجاورين بخاصة.

وقد استخلصت المداخلة من النصوص المذكورة مادة تاريخية عالجتها بالدرس

في فقرات ثلاثة بالعناوين التالية:

أ . لمحات من حياة المجاورين في بعدها الديني .

ب . لمحات من حياة المجاورين في بعدها الاجتماعي .

ج . لمحات من حياة المجاورين في بعدها العلمي .

(أ)

يتسع مفهوم الدين في التصور الإسلامي ليستوعب حياة المسلم بكافة أبعادها. ومنها بعد يمد به العبد بسبب إلى السماء، يبلى عبره إيمانه بالله وخضوعه له من خلال اجتهاده في أداء العبادات من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج. وهذا ما تعنى هذه الفقرة باستجلائه من حياة المجاورين الذين كان في مقدمة دوافع المجاورة التفرغ للعبادة والإقبال على الآخرة.

وقد سجل لنا ابن مرزوق لمحات من البعد الديني في حياة المجاورين تمثلت في حرصهم على تكرار الحج كل سنة وعلى الاستكثار من العمرات وخاصة في شهر رمضان، وقد أخبر ابن مرزوق بدؤوبه رفقة والده والحاج الصالح العابد يوسف بن يعقوب المطغري على أداء العمرة غير مرة في اليوم طلبا للأجر والثوبة، قال: (وكنا

نخرج للاعتما في شهر رمضان رغبة في حصول ثوابه لما رأناه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال "عمرة في رمضان تعدل حجة" وفي رواية "حجة معي" فكنا نخرج بعد الصبح للعمرة، وبعد العصر لعمرة أخرى. وربما كنا نصلي المغرب أحيانا فنخرج لعمرة أخرى) ص 234 بل صار ابن مرزوق نفسه يعتمر (في كل الأوقات هذه العمرات الثلاث في كل يوم) ليس في رمضان فقط. (1)

وحرصا على الأجر والثواب كان المجاورون يتفرغون في أوقات من حياتهم اليومية للطواف. وقد سجل لنا ابن مرزوق من ذلك ما يشبه البرنامج اليومي للطواف عند والده (فكان إذا صلى الضحى وارتفع النهار يدخل إلى الطواف، فيطوف حتى يشتد الهجير) (2) كما أفاد ما عرف به طائفة من المجاورين منهم والده من صبر وجلد على الطواف في النهار وبالليل رواية عن بلديه وشيخه أبي الحسن علي بن محمد بن فرغوس التلمساني الذي حدثه بذلك، فقال: (ما رأيت أجلد من والدك على الطواف ومن خديمه يوسف، ومن الوزير أبي القاسم بن سهل الأندلسي، ومحمود العجمي. وكان كل واحد من الأربعة يطوف بين نهاره وليله اثنين وثمانين ميلا، وهي بقدر أن يمشي الماشي اثنين وثمانين ميلا، فكان يلزم هذا العدد مدة جواره في رحلته الثانية إلى أن أقعد رحمه الله) (3)

وعلى غرار دؤوبهم على الطواف كان دؤوبهم على قراءة القرآن الكريم وعيا منهم بما لها من عظيم الفضل وجزيل الأجر عند رب العالمين، ومن ذلك ما أفاد به ابن مرزوق عن قراءة جماعية للقرآن الكريم في الروضة الشريفة ما بين القبر الشريف والمنبر الكريم بعد صلاة الفجر وبعد المغرب، وكان والده وعلماء أعلام يشاركون في هذا المجلس مع طائفة من القراء في (سبع)، والسبع عبارة عن اجتماع جماعة لقراءة القرآن بإجازات. وأصحاب هذا السبع يقرأون خمسة أحزاب غدوة، وخمسة أحزاب عشية، وبعد المغرب، فإذا ختمت الأحزاب ارتفعت الأصوات بالدعاء. وكان هذا السبع يعرف بسبع ابن السلعوس (4) وكذلك ما أخبر به ابن مرزوق عن طائفة من المجاورين بالمدينة النبوية من أهل الغرب إذ يجتمعون في رباطهم إذا جن الليل فلا يسمع لهم إلا كدوي النحل ذكرا وتلاوة (5) كما أخبر بما كان لوالده من حرص موصول على

تلاوة القرآن الكريم، فكان إذا صلى الصبح بمكة (يتلو القرآن إلى أن يصلي الضحى) (6) ثم يستأنف التلاوة إلى صلاة الظهر (7) وبعد صلاة العصر (يعود للتلاوة في مصحفه إلى غروب الشمس) (8).

واقْتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتذاء بفعله في قيام الليل والتهجد أخبر ابن مرزوق بأن والده كان فيمن يفتح لهم المسجد النبوي ليلاً، فيقوم فيه للصلاة إلى أن يصبح (9)

ومن هذا القبيل الحرص على الزيارات المشروعة في مكة والمدينة اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك زيارة مسجد قباء يوم السبت، قال (وكان . أي والده . يقصد قباء يوم السبت في أكثر الجمع، فيصلي في مسجدها) (10) كذلك كان (يقصد الشهداء حيث ضريح حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من الشهداء في أحيان) (11) كما كان وهو في مكة المكرمة يخرج لمقبرة المعلى فيترحم على من به من الأموات) (12).

وإلى ذلك احتفظ لنا ابن مرزوق بمعلومة مهمة عن تقليد مكّي كان يشارك فيه المكيون والمجاورون وفيهم شيوخ العلم، وهو زيارة بيت مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم إحياء لذكرى يوم المولد الكريم، قال: (وقد دخلته مع غير واحد من مشايخنا المكيين وغيرهم، وقل ما يختلف أحد يوم المولد الكريم عن تعاهده والتبرك به من جميع أهل مكة شرفها الله، وهو يوم مشهود عندهم، والموضع مقصود للدعاء، معروفاً لإجابة، ظاهر البركة، يسر الله علينا تعاهده ولا حرماناً بذنوبنا منه بفضلته وكرمه، وبركة تلك المعاهد المكرمة والمواضع المشرفة، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ الكريم) (13).

(ب)

تزامنت فترة مجاورة أبي عبد الله بن مرزوق بالحرمين مع مرحلة الطلب والدرس، ومع ما عرف عنه من تعلق بالعلم منذ نعومة أظفاره فقد كان لعاملين اثنين . خلال فترة مجاورته . أثر بعيد في إقباله على الدرس والتحصيل، أولهما حث والده إياه ليس فقط بما اعتاد الآباء أن يحثوا به أولادهم على الاجتهاد في الطلب

والتحصيل، ولكن بمشاركته في هذا وذاك . مع ما وصف به من سعة العلم . حين كان يغشى برفقته حلقات بعض شيوخ العلم في المسجد الحرام مثل حلقة برهان الدين بن مسعود بن إبراهيم بن سعيد الإربيلي المصري المعروف بابن الجابي وبالمسروريفي درس القراءات والتجويد، بل إنه نص على أن أكثر من لقيه من شيوخ العلم لقيه معه(14).

وقد أقبل أبو عبد الله . كما أمل والده . على حلقات الشيوخ بمكة تارة وبالمدينة أخرى يأخذ عنهم ويحمل، ويتلقى عنهم ويروي. وقد أودع برنامجيه الأصغر والأكبر أخبارا عن هذه الحلقات وعن شيوخها من الحجازيين والمجاورين، غير أن نسخة فهرسة (عجالة المستوفز) المتاحة حاليا يتعذر بسبب رداءتها استخلاص تراجم شيوخه من المجاورين مغاربة ومشاركة المشتغلين بالعلم للتعرف على ما أسهموا به من نشاط في المشيخة المذكورة بالحرمين الشريفين خلال القرن الثامن. ومن هنا كان علينا أن نعمد إلى كتبه الأخرى للبحث عما خلله به من تلك الأخبار وغيرها مما يتعلق بالمساهمة العلمية للمجاورين في الحرمين الشريفين، كما كان لزاما أن نفرع إلى كتب التراجم مثل (العقد الثمين) للفاسي و(التحفة اللطيفة) للسخاوي و(الدرر الكامنة) لابن حجر بحثا عما تضمنته من تراجم شيوخ العلم من المجاورين.

وهذه أسماء من عرفنا من شيوخه من علماء المجاورين الذين جلس إليهم ابن مرزوق بالمدينة المنورة: عز الدين أبو محمد الحسن بن علي بن إسماعيل الواسطي (ت 741 هـ) أم بالمسجد النبوي و(أخذ عليه ابن مرزوق ما كان يقرئه من علوم التفسير والقراءات، وأثنى عليه وذكر أنه جمع في مناقبه جزءا(15) وجمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى الخجرجي المطري(16) ومحيي الدين أبو زكرياء يحيى بن محمد المغراوي التونسي(17) ونور الدين أبو الحسن علي بن محمد الحجار الفراس(18)

وشهاب الدين أحمد بن محمد الصنعاني(19) وبهاء الدين موسى بن سلامة المدلجي الشافعي المصري(20) وأبو طلحة الزبير بن أبي صعصعة بن علي الأسواني(21) وأبو البركات أيمن بن محمد بن محمد بن أيمن التونسي(22) وأبو محمد عبد الله بن

محمد بن فرحون اليعمري التونسي(23) وأبو فارس عبد العزيز بن عبد الواحد بن أبي ركنون أو زكنون التونسي نزيل المدينة وشيخ القراءة بها أقرأ بالروايات وكان يتحضر التاريخ(24).

وهذه أسماء من عرفنا من شيوخه من علماء المجاورين الذين جلس إليهم ابن مرزوق بمكة المكرمة: برهان الدين إبراهيم بن مسعود بن إبراهيم الأربلي(25) وأبو الربيع سليمان بن يحيى بن سليمان المراكشي السفاح، وأبو الحسن علي بن رزق الله الطنجي(26) وأبو محمد عبد الله الزواوي(27)..

ويمكن تقييم ما كان هؤلاء الشيوخ يتوفرون عليه من معارف يبثونها في حلقاتهم بالنظر إلى ما حلاهم به تلميذهم ابن مرزوق، ومن ذلك تحليته شيخه أبا الحسن علي بن رزق الله الطنجي ب(الفقيه الحافظ، العلامة المالكي شيخنا الذي به استفدت وعليه أولا في مكة قرأت)(28) وما حلّى به شيخه برهان الدين إبراهيم بن مسعود بن إبراهيم الأربلي المصري ب(الأستاذ العلامة مقرئ عصره إمام وقته في القراءات وصدر صدور عصره)(29) وما حلّى به الشيخ أبا محمد عبد الله الزواوي بكونه من كبار العلماء المتصدرين المشهورين، قرأ على أعلام، وقرأ عليه، واستفاد به أعلام(30)..

ولم يقف ابن مرزوق في التعريف بمن عرف من العلماء في الحرمين، وإنما عني كذلك بذكر أعلام المجاورين كان لهم نشاط علمي في فضاءات أخرى من حلقات درس ومجالس مناظرة، وتلك هي فضاءات الأربطة التي كانت على توالي العصور مجمع العلماء والفقهاء والمحدثين وملتقاهم، يقيمون بها ويمارسون نشاطهم العلمي برحابها. ومن ذكرهم ابن مرزوق من هؤلاء العلماء أبا الحسن الغماري، ويوسف الغماري، وعبد الله الزواوي ووالده أبا العباس أحمد بن مرزوق وغيرهم.

وما كان لابن مرزوق أن يغفل ذكر ما كان لوالده من مساهمة في النشاط العلمي إبان مجاورته بالمدينة ومكة، فذكر من ذلك حرصه . مع سعة علمه . على غشيان حلقات العلماء من مثل حلقة برهان الدين بن مسعود بن إبراهيم بن سعيد الأربلي المصري في القراءات والتجويد بحرم الله بمكة المكرمة، وفيها كان يحود القرآن بعد صلاة الصبح(31) وذكر له من ذلك أنه كان إذا صلى العصر جلس لسماع قراءة

الكتب التي عواندها تقرأ في الروضة الشريفة بعد العصر، وهي كتاب الشفا، وكتاب فضائل مولانا محمد صلى الله عليه وسلم، وقصائد في مدحه جرت العادة بقراءتها، ولقارئها عليها جريات) (32) وذكر كذلك في برنامجه أن والده كان بعد صلاة الظهر (يجلس لسماح كتب الحديث من أصول الأمهات والأجزاء) (33).

ولم يفت ابن مرزوق تسجيل آخر ما كان لوالده من شاهد لحرصه على العلم، وذلك ما ضمنه في هذا النص: (في سنة إحدى وأربعين ورد على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم الشيخ الإمام سيدي خليل المالكي من مكة زائراً فأقام أياماً، ثم إنه - أي والده - رضي الله عنه قرأ بين يديه كتاب (أفضل القرى) تأليف الإمام محب الدين الطبري (محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري المكي الفقيه المحدث الإمام المصنف العالم مفتي الحرمين توفي بمكة عام 694هـ) وقرأ في فضل ما جاء في مقبرة مكة حديثاً رواه عبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عملر بن الخطاب رضي الله عنهما عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال في مقبرة مكة لما وقف على الشية التي بأعلاها وليس بها يومئذ مقبرة: (يبعث الله من ها هنا سبعين ألفاً، وجوههم كالقمر ليلة البدر، ويشفع كل واحد منهم في سبعين ألفاً، وجوههم كالقمر ليلة البدر، ويدخلون الجنة بغير حساب ولا عقاب) فقال أبو بكر رضي الله عنه: من هم يا رسول الله؟ فقال: هم الغرباء من أمتي الذين يدفنون ها هنا) وهذا معناه (34).

ونختم هذه الفقرة بمثال من مشاركة ابن مرزوق الخطيب في نشاط المجاورين العلمي بجلوسه لإقراء الحديث الشريف في حلقة مكتظة بطلاب العلم بحرم الله بمكة المكرمة، قال: (وكنت بمكة أقرأ للناس كتاب البخاري رواية عن شرف الدين عيسى بن عبد الله الحججي، وقد ذكرته في برنامجي وأصول مروياتي جبرها الله. وكان يحضر هذا السماع خلأق كثيرة، رجالاً ونساء وأطفالاً، ويحضر جماعة من عباد الله الصالحين أعاد الله علينا بركاتهم) (35).

وإلى هذه الجوانب من حياة المجاورين العلمية والمنصبة على حلقات الدرس والتعريف بشيوخها ثمة جوانب أخرى ذات بعد علمي كذلك كان للمجاورين إسهام ملحوظ في إغنائها مثل المناظرات العلمية، ومثل خدمة الكتاب.

أما المناظرات فنمثل له بأمثلة ثلاثة:

أولها في المناظرات العلمية حول قضايا كان يثور حولها النقاش ذكر لنا منها ابن مرزوق ثلاثة، أولها قضية تصغير حجم المصحف، قال: (جرى في مجلس شيخنا برهان الدين عن مذهب الحنابلة أن من صغر مصحفاً وقال مصيحف كانت ردة يستتاب. هكذا حكاه مطلقاً، وفيه نظر، والوجه أن ينظر في قائل هذه المقالة، فإن كان مستهزئاً بها مستخفاً متهاوناً فهذا كما قيل، وإن كان جاهلاً ففي الحكم بتكفيره نظر، وقد وقع لأئمتنا: من ألقاه والعياذ بالله عمداً في القدر والنجس كان كافراً، والوجه ألا يعذر هذا بالجهل، فلا يصدر مثله عن قلب سليم بالإيمان، وبالله التوفيق) (36) وثانيها قضية تحديد ولادة سيد الخلق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (37) وثالثها قضية موضوع المفاضلة بين ليلتي القدر وليلة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم (38).

وأما خدمة الكتاب فنمثل له بمثلين:

أولهما تأليف الكتاب، ونمثل له بما ألفه ابن مرزوق من أعمال علمية أهمها معجم شيوخه المسمى ب(عجالة المستوف والمستجاز في ذكر من سمع من المشائخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز العنوان) وقد كان هذا المعجم مصدراً لغير واحد من العلماء والمؤرخين الذين عنوا بالحركة العلمية ورجالاتها في القرن الثامن ضمنوا كتبهم نقولاً عنه كما نجد عند تقي الدين الفاسي، وابن مريم، وابن الخطيب، وابن حجر، والمقري، وغيرهم. كما عني بالتأليف في مناقب بعض شيوخه، ومنهم أبو عبد الله المرشدي الذي ألف في ذكر فضائل وما بلغه من كراماته (39).

وثانيهما تحبيس الكتاب، ونمثل له بعناية المجاور بتحبيس الكتب على نحو ما كان من مبادرة والده حين حبس قبيل وفاته كتباً على طلبه العلم (40).

كما أفاد ابن مرزوق بوقوفه على المصحف الذي بعثه المولى أبو يعقوب بخط ابن حسني، ونقل لنا وصفه بقوله: (كان وجهه محلي بالذهب المنظوم بالجواهر النفيسة، فانتزع ما عليه وبقي في قبة الشراب يقرأ فيها احتساباً، وقد قرأت فيه في

أعوام. وهذا شأن الناس في الوقت على أن حق من وضعت فيهم الصدقات، وأجزلت لهم الصلات المجاورون بالحرمين الشريفين نفعهم الله ونفع بهم(41).

وقد ظل ابن مرزوق بعد عودته إلى بلده معنيا بأمر الحياة العلمية بالحرم النبوي فنجده يفيد بما كان يثري حياة المجاورين وأصحاب البلاد، فيذكر في مسنده (الربعة المدنية) التي انطلق بها ركب الحج التلمساني إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم في ربيع الأول من سنة أربعين، وهي الآن مستقرة بالحرم الشريف النبوي أدام الله بركة الانتفاع بها) وأفاد بأنه (استقر على القراءة فيها حبس بظاها) (42) وختم بالدعاء بقوله: أعان خدام المقام العلي المولوي العزيزي أيده الله على التنبية على تفقدها والازدياد من التحبب عليها وعلى المكية والقديسية (43) كما أفاد بالربعة الكريمة التي توجه بها الفقيه أبو الفضل محمد بن عبد الله ابن أبي مدين العثماني سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة، وأصحابها هدية حافلة وصلات لأهل الحرمين، واشترى ما حبس عليها، وحبس بفاس ربعا خاصا بها (44).

(ج)

ومثلما أقبل المجاورون على العبادة يطهرون بها نفوسهم، وعلى العلم ينورون به عقولهم أقبلوا على العمل الصالح يزكون به ذاتهم. ولا مزية في أن العمل الذي يراد به وجه الله تعالى يشكل قرينة يتقرب بها العبد إلى الله سبحانه وتعالى، وخير ما يأتيه المسلم من العمل هذا الذي يعود بالنفع على المسلمين. ولا جدال في أن أي عمل صالح يؤدي بمكة المشرفة أو بالمدينة المنورة يراد به وجه الله لهو خير عمل.

وقد أفاد ابن مرزوق بشواهد من أعمال المجاورين في هذا المجال، يأتي في مقدمتها عمالان:

أولهما: مساهمتهم في إنشاء الأربطة وتحببها والقيام على شؤونها المختلفة بما يحقق هدفها الديني والاجتماعي والعلمي.

ومن الأربطة التي أنشأها المجاورون رباط (دكالة) ويعتبر من أقدم الأربطة التي عرفت بالمدينة النبوية، وأخبر ابن مرزوق أن جماعة من أهل دكالة المغارب أولياء وردوا

المدينة، وكانوا من الأولياء اشتروا هذا الموضع بأموال من أعمال أيديهم، وبنوا فيه هذا الرباط، وهو من أكبر الرباط، يشتمل على بيوت وغرف يسكنه المجاورون، وغالبهم المغاربة الخيار الفضلاء نفع الله بهم) (45). ومنها رباط الخوزي، وهو من أربطة مكة المكرمة. ويظهر أن اسم هذا الرباط - حسب المستفاد من كلام ابن مرزوق - كان يتغير وفق اسم المشرف عليه، فقد عرف كذلك برباط ابن فرغوس - وهو من المجاورين المغاربة - لكثرة سكناه له نحو من ثلاثين سنة، ثم عرف باسم سنة، وأخاله الآن يعرف باسم رباط الشيخ عبد الله الهواري لكونه أقام به أكثر من هذا العدد) (46) وهو أيضا من المجاورين المغاربة، وكان ابن مرزوق على معرفة به حسب ما يستفاد من قوله (وعهدي به الآن بحالة الحياة) (47) ولعله كان أطلع على أخبار هذا الرباط، ولعلها التي عنها ابن مرزوق بإشارته في كتاب (المناقب المرزوقية) إلى أن لرباط الخوزي هذا قصة ذكرها في شرحه كتاب العمدة أي (كتاب تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام) وهو كتاب (عمدة الأحكام عن سيد الأنام) لتقي الدين عمر بن علي الجمائلي من أعلام القرن السادس الهجري. ولا ندري فحوى القصة المشار إليها. كما أخبر ابن مرزوق بنزلاء رباطين آخرين، هما رباط ربيع (48)، وهو مجاور اسمه ربيع بن عبد الله المارديني، أنشأه بأمر الملك الأفضل الأيوبي، ورباط موفق (50) ويعرف كذلك باسم رباط المغاربة لكثرة نزلائه من أهل المغرب.

وقد استقبلت الأربطة المذكورة حسب إفادة ابن مرزوق عددا من المجاورين، كان فيهم شيوخ علم وسلوك سمي منهم في رباط دكالة عز الدين الحسن بن علي الواسطي إمام مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال (وكان يسكن في رباط دكالة في دويرة بنيت بدار عثمان بن عفان رضي الله عنه) (51)، وفيها مسجد هو موضع استشهاده رضي الله عنه، وكانت دويرة معظمة يسكنها الأكابر) (52) ويبدو أن جل نزلاء هذا الرباط كانوا على قدر عال من العلم والخلق والفضل والدين، وهو ما ينم عنه وصفهم عند ابن مرزوق بقوله (كان فيهم صدور وأي صدور، أرباب كرامات وأحوال) (53).

كما عرف بنزلاء من أهل العلم والصلاح في رباط الخوزي، ومنهم بلديه الشيخ

أبو الحسن علي بن محمد بن فرغوس التلمساني، قال يعرف به: (أدرك بتلمسان جدي وأصحابه ونظراءهم ولازمهم، ورحل وجمال في أقطار الأرض من السوس إلى السيس مع العراقيين واليمن والعدوتين، ثم لزم مكة حتى مات بها رضي الله عنه) (54) وعرف بنزيل آخر هو الشيخ أبو الحسن العجمي فقال: كان (من الصلحاء الأولياء، من كبار أولياء الله المنقطعين، مجردا منقبضا عن الناس، مقبلا على شأنه، لا يزال التاليا، ذاكرا صامتا عن جميع الكلام إلا رد السلام أو نحوه، وتذكر له

كرامات نفع الله به) (55) كما حلى نزيبا آخر هو أبو محمد الهواري بكونه من الصلحاء الأتقياء الكرماء، وذكر أن والده كان يعظمه (56) وأنه . أي والده . كان يزوره يلزمه لقربه ويبيت عنده في الرباط يكحل العين من طاقة مفتوحة للحرم بمشهد الكعبة شرفها الله عز وجل (57).

وسمى ابن مرزوق من نزلاء رباط ربيع طائفة حلاهم بكونهم أعلاما كبارا من أصحاب والده كأبي الحسن الغماري، ويوسف الغماري، وأبي الحسن علي بن رزق الله الطنجي (58).

كما سمي لنا من نزلاء رباط موفق العلماء الشيخ أبا محمد عبد الله الزواوي، وحلاه ب (كبير القدر الصالح الولي المجاب) (59) وأفاد بأنه بعد اشتغاله بالدرس والتدريس آثر الآخرة على الأولى، فعكف على العبادة، وتبتل ولازم الجوار بمكة شرفها الله تعالى، وكان من المكاشفين المنقبضين عن الناس، يخرج إلى المسجد الحرام لشهود الصلوات بتؤدة وسكون وخشوع وإطراق، ويدخل الطواف ليلا فيطوف عشرة أسابيع، وبالنهارة إما مشاهدا أو في منزله، يفر ممن يقصده للتبرك، لا يرى نفسه أهلا لذلك، ولا يعلم له أحد

من أين يقتات، ولا يخالط أحدا من الناس، بركاتهم مشهورة، وكراماتهم أثورة، نفع الله به، وأرانا بركات التوسل به وبأمثاله. مات بمكة ودفن في الموضع الذي دفن فيه مولاي الوالد رحمه الله تعالى عليه) (60).

وأفاد ابن مرزوق عن نزيب آخر بهذا الرباط اسمه سعادة الجوابي، حلاه ب (الشيخ الإمام ولي الله تعالى، المجمع على ولايته، أكبر من كان إذ ذاك من

الأولياء، يشار إليه، وهو الذي انعقد الإجماع عليه رضي الله عنه. وكان مبسوطا رضي الله عنه، ما لقيته قط إلا تبسم في وجهي، ويعطيني يده حتى أقبلها، ويفرح بي. (روى له حكاية في صلاحه) وقال: مات بمكة ودفن بالمقبرة المذكورة، مقبرة الغرباء (61).

كما عرف بسيرة نزيل آخر هو أبو الحسن التكروري، فقال: (العابد لولي من كبار الأولياء، قدم مكة من بلاد التكرور، سودانا لعجم، فأقام بها معتكفا إلا إذا خرج إلى الطواف أو الصلاة. سكن هذا الرباط، وسكن رباط ابن فرغوس مدة. وكان يقال إنه لا يفطر إلا عند تمام الأربعين، والخبر بذلك مستفيض، وكان يقصد للدعاء. وربما غاب عن مكة أعواما) (62) ونقل عنه قوله في تعليل ذلك (أغيب عنها ليشته شوقي إليها) (63) وسمى من سكانه معاشر والده الفقيه المقرئ الصالح أبا عبد الله محمد بن محمد القرموني التلمساني (64).

وثانيهما مساهمتهم في رعاية المجاورين وغير المجاورين من الفقراء والمرضى والمنقطعين.

وقد حضر ابن مرزوق مشهدين من الرعاية الاجتماعية التي كام والده ينهض بها في دأب واستمرار، رصد في أولها من مبرات والده أيام مجاورته بمكة والمدينة حين كان يراه وهو يضع في أول النهار دشيشا في قدر، ويطبخه بنفسه، فإذا نضج من الغد خرج ومعه من يحملها، فيمر بالمرضى والمنقطعين، فيعطي كل واحد

منهم ما يشبعه، ويأتيهم آخر النهار بخبز وفي بعض الأحيان (بخبز وإدام) ويفرق عليهم. ثم بعد يومين يجيء إلى المرضى الذين يعجزون على صلاح شؤونهم فيغسل عنهم الأذى بنفسه، رأيته، والله، غير مرة مشمرا محتزما

وهو يصب بيده، ويغسل بالآخرى، ويحمل أطمارهم فيغسلها، والله، بنفسه،

ويكنستحتهم بيده، ويفلي ثيابهم من القمل ورؤوسهم، ويحلقها لهم بيده،

ويرقع خلقهم، فإن الناس إذا حجوا ينقطع كثير من الغرباء بالحرمين الشريفين، فمن قصرت به النفقة، وأدركه التعب، وأصابه مرض، فإن تلك

المياه الكائنة في البرية يحدث عنها غالبا أمراض، وأكثرها البطن، فينقطع في الحرمين بعد سفر الحج خلائق من الغرباء، فيقوم بهم أهل الخير. وكان له رحمه الله في هذا تقدم وشدة، لا يفوته في يوم من الأيام، وذلك بعد خروجه من القراءة في السبع (65).

وأما المبرة الثانية لوالده فقد كان يشمل بها في رمضان الصائمين من المجاورين من مختلف أقطار العرب والعجمقال: (... فلما كان شهر رمضان المعظم أمر مولاي الوالد رحمة الله عليه خديمه أن يعمل طعاما ليفطر عليه مع المجاورين على عادته. وكانت عادته يصنع طعاما قدر ما يكفي عشرين أو نحوها، ويدعو كل ليلة هذا العدد يفطر معهم) (66).

وفضلا عن هذا وذاك فقد كان والده إذا صلى الضحى وارتفع النهار (خرج لمواساة الضعفاء) كل يوم (67).

ومن هذا القبيل ما أخبر به عن مبرات بلديه الشيخ أبي الحسن علي بن محمد بن فرغوس التلمساني الأصل، فقد عرف بجوده وكرمه، يجتمع إليه أهل رباطه وغيرهم وقت أكله، فيأكلون معه في سماطه (68) وذكر أنه كان لأهل مكة فيه جميل اعتقاد، يرقم رضاهم، ويدعو لصغارهم، ويستشفون برقاها (69).

ومثل هذه المبرات دالة على ما كان يصل بين المجاورين وبقية فئات المجتمع في مكة والمدينة من وشائج الأخوة في الله التي تشيع روح التعاون على البر والتقوى بين كافة أفراد المجتمع. وبالإضافة إلى ما كشفت لنا عنه المبرات سالفه الذكر من مظاهر التكافل الاجتماعي نسوق شواهد أخرى على ذلك مما تضمنته أخبار ساقها ابن مرزوق فيما تحدث به عن أصدقاء والده من المجاورين، وهي:

أ . حين عزم الشيخ الواسطي . حلى ابن مرزوق الشيخ الواسطي ب (سيدنا وشيخنا) 220 على الرحيل إلى مكة للجوار وهب داره لوالديه (70).

ب . وحين قدم مع والده المدينة بادر فأسكننا الفقيه الإمام الصالح أبو محمد بن فرحون مدة بداره (71).

ج . تحبب والده وصديقه المجاور الفقيه الصالح أبو عبد الله محمد بن علي بن عيسى من أهل تازة الدار التي كانت في ملكهما في سبيل الله (72).

د . وقبيل وفاة والده أعتق مملوكة له، وتصدق بزعر، وأوصى ببيع أسباب، وبما يدفع للمعتقة وما يتصدق به (73).

عرضنا في الفقرة الأولى من هذه المداخلة ألوانا من اجتهاد المجاور في مجال العبادات بلورت عمق إيمانه بربه وامثاله لدعوة وحيه ابتغاء الاهتداء في القول والاستواء في العمل. ثم قفينا في الفقرة الثانية بعرض ألوان من اجتهاد المجاور في مجال تحصيل العلم النافع الذي يهتدي به الفرد والجماعة في بناء المجتمع وفق تعاليم الإسلام وآدابه. وفي هذه الفقرة الثالثة والأخيرة عرضنا ألوانا من اجتهاد المجاور في مجال المعاملات بلورت مستويات من مبراته في خدمة مجتمعه.

وعسى أن يكون فيما عرضناه في الفقرات الثلاثة من أخبار المجاورين الدينية والعلمية والاجتماعية ما يكشف عن الحس التاريخي عند ابن مرزوق الخطيب من جهة ويحقق هدفه، من أخرى، في الكشف عن مجتمع الجوار الفاضل بما كان يسوده من يقين، وعلم، وتكافل.

الهوامش

- 1) المناقب المرزوقية ص 234
- 2) نفسه ص 212 . 213
- 3) نفسه ص 213
- 4) نفسه ص 214 . 215
- 5) نفسه ص 221
- 6) نفسه ص 212
- 8) نفسه ص 213
- 9) نفسه ص 213
- 10) نفسه ص 214
- 11) نفسه ص 215
- 12) نفسه ص 216
- 13) جنى الجنتين ص 26
- 14) المناقب المرزوقية ص 212
- 15) الدرر الكامنة ج 3 ص 403 رقم 3364
- 16) نفسه رقم 3364

- 17) نفسه رقم 4750
- 18) نفسه رقم 2904
- 19) نفسه رقم 793
- 20) نفسه رقم 4883
- 21) نفسه رقم 1733
- 22) نفسه رقم 1134
- 23) كحالة ج 6 ص 460
- 24) الدر رقم 2430
- 25) العقد الثمين ج 3 ص 262 رقم 727
- 26) المناقب ص 211
- 27) نفسه ص 231
- 28) نفسه ص 217
- 29) العقد الثمين ج 3 رقم 727
- 30) المناقب ص 212
- 31) نفسه ص 212
- 32) نفسه ص 215
- 33) نفسه ص 213
- 34) نفسه ص 271
- 35) نفسه ص 234 . 235
- 36) المسند ص 473
- 37) جنى الجنتين ص 33
- 38) نفسه ص 43
- 39) المسند ص 482 . 483
- 40) المناقب ص 272
- 41) المسند ص 476
- 42) نفسه ص 477
- 43) نفسه ص 477
- 44) نفسه ص 477
- 45) المناقب ص 221
- 46) نفسه ص 221
- 47) نفسه ص 221
- 48) نفسه ص 228
- 49) نفسه ص 221
- 50) نفسه ص 221
- 51) نفسه ص 220
- 52) نفسه ص 220
- 53) المناقب ص 221

- 54) نفسه ص 216
55) نفسه ص 217
56) نفسه ص 217
57) نفسه ص 216
58) نفسه ص 217
59) نفسه ص 211
60) نفسه ص 217 . 218
61) نفسه 218 . 219
62) نفسه ص 219
63) نفسه ص 218
64) نفسه ص 218
65) نفسه ص 246
66) نفسه ص 198
67) نفسه ص 152
68) نفسه ص 216
69) نفسه ص 217
70) نفسه ص 220
71) نفسه ص 220
72) نفسه ص 220
73) نفسه ص 272